«معهد مولاى المهـــــــــدى»

قررت ادارة معهد مولاى المهدى استعمال هذا الكتاب فى مدارسها

القدوة الساميـــــــة

للنـــاشئة الاسـلاميـة

كتاب مطالعة لتلامذة المدارس المغربية

تـــأليف

مؤرخ الادب المغربى الاستاذ العلامة
سيدى عبد الله كنون الحسنى

طبـع على نفقة «معهد مولاى المهدى»

(طبـع بمطبعة الوحدة المغربية - تطوان (المغرب)

بسم الله الرحمن الرحيم

اَللَّهم انى اعوذ بك من الفقر الا اليك، ومن الذل الا لك، ومن الخوف الا منك، واعوذ بك ان اقول زورا، او اغشى فجورا، او اكون بك مغروراً، واعوذ بك من شماتة الاعداء، وعضال الداء، وخيبة الرجاء، وزوال النعمة، وفجاءة النقمة، وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم.

امـا بعد ايها الناشىء المسلم، ارشدك الله ووفقك لما يحبه ويرضاه، فانك على خطر عظيم من امر مستقبلك ومستقبل امتك التى هى خير امة اخرجت للناس، لأَمرها بالمعروف ونهيها عن المنكَر وايمانها بالله. فقم على ساقِ الجد والاجتهاد لأَداء المهمَّة التى حُملت، وتبليغ الرسالة كما أُمِرْت، واقتد فى ذلك باسلافك الكرام، الذين لم يذخروا جهدا فى سبيل اعزاز الاسلام، وحماية بيضته والدفاع عن حقيقته، حتى اوسلوه لنا غضاً طرياً، ودلُّونا عليه صراطاً مستقيماً لا عوج فيه ولا امت. وقد اورثهم الله ملك الدنيا وحُسْنَ ثواب الآخرة، بسبب مُحافظتهم عليه، وتمسُّكهم بحبله، وقيامهم بدعوته، فكيف بك اذا قَصَّرت دونهم، وتخلفت عن نهجهم وطريقهم فصرت من المسؤولين عن ضياع هذا المجد الاثيل، والمحرومين من اجر ذلك العمل الجليل؟!

لعمري انها خطة سوء وذنب لا يغفر، ولا يرضى بذلك الا زنيم لئيم، مُتبلد الإحساس جامد الذهن، واعيذك بالله ان تكون كذلك فتهلك مع الهوالك.

وها أنا اضربُ لك امثالا سامية مما كان عليه ذلك السلف الصالح من العزيمة والثبات والهمة والشجاعة والغيرة والاخلاص، عسى ان تنبعث نفسك للاقتداء بهم، والنسج على منوالهم، فيتصل حاضرك بماضيك، ويعود مجد هذه الامة كما بدأ. وعلى الله قصد السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

العزيمة والثبات

نجاح السعى فى حسن الثبات ... وعقبى الصابر النصر المواتى
تأمل يافتى ما سوف يلقى ... اليك من العظات البالغات
وكن للخير واعية وبادر ... به زمن الصبا خوف الفوات
فاما شئت ان تحيا شريفا ... فكن رجلا على لين القناة
وإياك التخنث والتصابى ... فتخسر دائما شرف الحياة
ألا إنّ الرجال لفى صباهم ... تراهم غير متّهمى الحصاة (1)
ارايت الى ابى حسن على ... يدين بدين خير الكائنات
وما زالت سنوه دون عشر ... وما فى قومه غير الطغاة
دعاه المصطفى فاجاب فورا ... وقام بجنبه عند الصلاة
وكان مضى يشاور ثم ولّى ... يقول وهل أشاور فى نجاتى؟ (2)
كذلك ان هديت الى رشاد ... فلا تعدل به غىّ الغواة
ولازم نهجه فى كل حين ... ولا تنصت الى قول اللُّحاة (3)
فمنهم من يرى الاصلاح عيثا (4) ... وينصح باجتناب المكرمات

---

(1) العقل.

(2) لما دعا النبى «ص» عليا الى الاسلام قال له امهلنى حتى اشاور ابى ثم قال لقد خلقنى الله من غير ان يشاور ابا طالب واسلم.

(3) اللائمين.

(4) فسادا.

ومنهم من يصد عن المعالى   لقلة حظه فى المعلوات
خباثة انفس تؤذيك جهلا   وحقد يغتدى لك بالأذاة

✡✡✡

اذا ما شئت فوزاً فى الحياة   فلا تطع الفئام (1) الجاهلات
وجدَّ وجد(2) بما تقوى وتحوى   لتدرك اشرف المتمنيات
وخذ بيقين نفسك فى التوانى   ودع عنك الظنون الكاذبات
ولا يغررك مدح او ثناء   فانهما كتفليل الظبات (3)
ودونك فادَّرع عزما قويا   خصوصا فى الظروف السيئات
فليس يحول دون تمام امر   كضعف الشخص عند النائبات
تفكر فى النبى وقد غشته   جموع الشرك من كل الجهات
وجاءت عمه متشكيات   وفى نياته متشككات
وقالت كفَّه عنا والا   سطا بكما معا أهل التِرات(4)
فقام الشيخ مكتئبا اليه   وقال لقد فرِغت من الشكاة
فأبق على ياولدى فإنى   ضعيف الحول ما بين العتاة
ولم يكن النبى يشك فيما   عليه القوم من خبث النيات
وفكر فى تخلى العم عنه   ففاضت عينه رغم الثبات

---

(1) الجماعات.
(2) جد الاولى امر من الجد والثانية من الجود.
(3) جمع ظبة وهى حد السيف.
(4) الاحقاد.

ولكن فاء فيئة ذى رشاد   وقال مقالة الخمس (1) الاباة
ألاَ ياعم، فاتركنى، وانى   على امرى الى حينِ الوفاة
فلو أعطى نجوم الافق فيه   لأَرجع عنه ما نَديت صَفاتى (2)
وسار وملؤ باطنه يقين   بحفظ الله فى ماض وءات
يقول لئن تخلى الكل عنى   فان الله لى خير الكفاة
وادهش عمَّه منه اعتزام   وايمان يهُدّ الراسيات
فقال اذهب وقل ما شئت انى   ساصلى فيك نيران العُداة

☆☆☆

وكانوا قبلُ قد منّوه ملكا   يدير الامر فيه بافتيات
وجاءوا يعرضون عليه ما لا   فلمَّا يحظ منه بالتفات
وماتت زوجه فمضى طبيب   له قد كان من خير الاساة
وفوّز (3) عمه ايضا فاضحى   فريدا بين اعداء جُفاة
فما وهَن الكريمُ ولا تظنى (4)   ولا اعطى الدنية للبغاة

☆☆☆

---

(1) الشجعان.
(2) نديت لانت والصفاة الصخرة وهذا مثل وقول النبى «ص» لعمه لما راوده على الرجوع عن دعوته مشهور وهو «ياعم، والله لو وضعوا الشمس في يمينى والقمر في يسارى على ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك دونه ما تركته».
(3) مات.
(4) يعنى لم يتردد فى امره.

فدت نفسى فريدا ليس يخشى ... لعزته الجموع الحاشدات
وتقصده الطغام (1) بكل ضر ... فترجع للمهابة خائبات
ولا يثنيه وعد او وعيد ... عن الغاى (2) التى له فى الحياة
ارادته تقوم مقام جيش ... وماضى عزمه كالمرهفات
اقام الله عنه وكيل صدق ... وصان القصد عن كل الهنات (3)
بذاك قضى على الاعداء طرا ... فبعد الجمع باءوا بالشتات
بذاك بنى لهذا الدين صرحا ... منيعاً يستطيل على البناة
بذاك اشاد للاعراب ملكا ... يليق بروح اولاء الكماة
بذاك هدى ابا بكر فلما ... تولى كان من خير الهداة
فقاتل تاركا للدين حتى ... لقاتل تاركا فرض الزكاة
وما بالى برأى مخالفيه ... فيا عجبا (الصدّيق) الحماة
تلافى الدين من تلف واضفى ... عليه ثياب عز سابغات
ولم يضعف وان قالوا ضعيف ... ففى غير الحقوق الواجبات

☆☆☆

لعمرك ما ينال العز الا ... فتى انضى متون اليعملات (4)

---

(1) الطغام اراذل الناس.
(2) جمع غاية.
(3) القبائح.
(4) جمع يعملة وهى الناقة الفارهة ومتونها ظهورها وانضاها اهزلها والمراد سعى اليه وجد في تحصيله.

ولا يجنى ثمار العلم شخص ... ضعيف العزم ذو نفس موات
يظل يهيم فى وادى الامانى ... فيدرك قصده خلل السبات
هى العلياء لا ترضى بكفؤ ... اذا عدم الزماعة (1) فى الصفات
ولا يحظى بها الاشجاع ... يفكر فى النتيجة لا النجاة
أجدك هل رايت كبير قوم ... ولم يكن ذا عزائم مبرمات ؟
أجدك هل سمعت الدهر عمن ... يعد العاجزين من السراة ؟
فمن فتح البلاد ومن تولى ... فدبر امرها غير الكفاة ؟
ومن نشر العلوم وكل فن ... سوى الأكفاء فى كل الجهات ؟
حديث صح ليس به اعتلال ... تناقله الكثير من الثقات
(صلاح الدين) عن (عمر) رواه (2) ... وخرجه الفقيه (ابن الفرات):
اذا جمع الفتى هما وعزما ... أتاه النجح فى كل المآتى

☆☆☆

فهذا يافتى دين الاوالى (3) ... فلا تحسبه تلك الترهات (4)
وهذا هديهم فانهج عليه ... فهم ءاباؤنا فى المأثرات
نصحتك باذلا فى النصح جهدى ... وبذل النصح من خير الهبات

---

(1) الاقدام.
(2) صلاح الدين هو الايوبى وعمر هو ابن الخطاب وابن الفرات هو القاضى اسد بن الفرات فاتح صقلية فهذا سند قوامه من رجال الحزم والعزم فهو اقوى ما يكون، وهذه تورية مليحة رشحت باقتباس الفاظ ايمة الحديث التى لا تخفى على المطلع. (3) الاوائل وهو منقلب عنه. (4) الاكاذيب والباطل.

الرجولة

الرجولة صفة عزيزة الوجود لا تعثر عليها الا فى افراد قليلين من الناس، وان كان الناس كلهم يدّعون انهم رجال، ورجال بكل ما تحتمل الرجولة من معنى. فاذا اشتبه عليك امر فرد منهم فأولى العلامات التى تحقق لك رجولته، اهتمامه بتكميل نفسه بتربيتها وتهذيبها وتثقيفها وتأديبها، فانه لا يهتم بذلك الا الفرد الذى يسمو عن مستوى العامة المهملين لانفسهم من هذه الناحية تماما، وذلك السمو هو اقليدُ (1) الرجولة الذى لا تفتح ابوابها الا به.

وثانية العلامات خفّته ونشاطه وحبه للعمل، فان النجاح بقدر السعى. والنصر ثمرة الجهاد. والنجاح والنصر هما مطلب الرجل فى هذه الحياة. فمن كان عاجزاً كسلان مؤثراً للخمول، كان متخليا عن هذا المطلب فلم يكن رجلا. وثالثة العلامات إباؤه وعزة نفسه وعلو همته، فمن كان حمالا للضيم، مهينا، ساقط الهمة، لم يكن له من الرجولة اسم ولا مسمى وكان فى الرجال كواو عمرو، فاذا تحققت لك هذه العلامات فى اى فرد، فاعلم انه الرجل الكامل الذى تشد عليه الانامل والذى فى مثله يقول القائل:

والناس الف منهم كواحد ☆ وواحد كالالف ان امر عرى

(1) مفتاح.

والامم والاوطان، لا يبنى مجدهما ولا يشيد عزهما الا الرجال من هذا الطراز. فاذا اصاب فقر الرجولة امـة او وطنا فهنـاك ترى اضمحلال المجد وذهاب العز، وتأمل فى تـاريخ الامم الاسلاميـة لما كانت غنية بالرجال كيف كانت منيعة الحوزة، محمية الحقيقة، باسطة اليد على من دونها من الامم، هذا فى مقام السياسة. وفى مقام العلـم والادب والحضارة والفن، كانت حاملة مشعـل الحكمة، تقتبس منها الامم وتقتفى ءاثارها، وتجهد جهدها فى محاكاتها وتقليدها.

ثم لما دبّ الفتور الى عزائم ابنائها وتمكن الوهن منهم، تركوا السعى والعمل، والفوا البطالة والكسل، فبدأ فقر الرجولة يتخـرمهم شيئا فشيئا، ويتنقـصهم رويدا رويـدا، حتى اتى على مجدهم وعزهم المتعالمين (1)، وكاد يتركهم اثراً بعد عين.

ونحن هنا فى المغرب، لم نزل امجاداً اعزاء، حين كانت الرجولة الصفة الغالبة علينا، ويكفى ان نشير الى ايام المرابطين والموحديـن والمرينيين التى كانت هذه البلاد فيها من اعظم البلاد مدنية وعمرانا، ورقيا ماديا وادبيا. وما ذلك الا بهمم الرجال الذين كانوا يسيطرون على سياستها ويهتمون الاهتمام كله بحياتها، فلما انسحبوا من الميدان، واعوزت (2) البلاد تلكم الهمم التى كانوا ينطوون عليها، صرنا

---

(1) المشهودين.
(2) احوجتها واحتاجت اليها فلم تجدها.

نتقهقر الى الوراء يوما فيوما، ونتأخر وغيرنا فى تقدم عاما فعاما.

حتى بقينا ولا جاه ولا نشب (1) ✡ ولا صديق ولا خل يواسينا

ففى فترة من فترات التراجع هذه، وهى اواخر ايام بنى وطاس، كان المغرب كله مهدداً بخطر الاحتلال الاجنبى، اذ كان البرتغال وهو العدو العتيد اذ ذاك، قد وضع يده على اكثر المدن الساحلية وجعل يتحفز منها للانسياح على الداخل، ولم تكن القوة المحلية لتستطيع دفاعه الا بمقدار. فكان الرجال الغُيُر.. وقليل ما هم - يستنفرون الناس للقتال ويؤلفون جيشا من المتطوعة يناوئون به العدو حينا بعد حين.

وكان منهم الشيخ ابو عبد الله محمد بن يحيى البهلولى، له وقائع عديدة مع العدو، وكان معاصراً للسلطان ابى عبد الله محمد بن محمد الشيخ الوطاسى المعروف بالبرتغالى لكثرة قتاله للبرتغال. فكان يزوره ويحضه على الجهاد، فيساعده على ما اراد، ويعينه بما يلزم، وله يقول فى زجل (2) مشهور :

قل للامير محمد ✡ ياطلعة الهلال

لويلة (3) فى السواحل ✡ من افضل الليال

وله شعر كثير فى هذا المقصد. ومن أشفه عن نفسه واصدقه تعبيرا عن غرضه قوله :

---

(1) مال. (2) الزجل محركا نوع من النظم عامى.

(3) تصغير ليلة كما يجرى على السنة العامة وهو مغتفر فى الزجل وصوابه لييلة.

قم للجهاد رعاك الله منتهجا ☆ نهج الرشاد الى الاقوام لو عقلوا
من بعد اندلس ما زلت مُحتدما (1) ☆ لو كان ينفعنى فى الليل احتزم

وله فى الرجولة حكاية ذات مغزى كبير، نسوقها هنا للاعتبار وهى التى دفعتنا الى كتابة هذه الكلمة. وقد حكاها صاحب الدوحة قال:

انه غزا مرة غزوة الى الثغور الهبطية (2)، ثم قدم منها مع اصحابه. فوجد زوجته فلانة بنت الشيخ ابى زكرياء يحيى بن بكار قد توفيت، وصلى الناس عليها بجامع القرويين، وامامُهم الشيخ غازى ابن الشيخ ابى عبد الله محمد بن غازى الامام المشهور، فوصل الشيخ ابو عبد الله ووجد جنازتها على شفير القبر، والناس يحاولون دفنها. فقال لهم مهلا. ثم تقدم واعاد الصلاة عليها مع اصحابه الذين قدموا معه. فبادر الناس اليه بالانكار فى تكرير الصلاة على الجنازة بالجماعة مرتين. فقال لهم على البديهة: «صلاتكم التى صليتم عليها فاسدة لكونها بغير امام» فقالوا له: «كيف ذلك ياسيدى؟» قال: «لان من شرط الامام الذكورية، وهى مفقودة فى صاحبكم، لان الذى لم يتقلد سيفا فى سبيل الله ولم يضرب به ولا عرف الحرب كما كان نبينا صلى الله عليه وسلم ولم يتعبد بالسيرة النبوية، كيف يُعدّ اماما ذكرا؟ بل امامكم والله من جملة النساء».

---

(1) مغتاظا متحمسا.

(2) اى الواقعة فى بلاد الهبط وهى ناحية بشمال المغرب.

فهذه الحكاية تبين لك ان الرجولة صفة عزيزة الوجود وان ادعاها الكثير من الناس. وقد كان فى عمل الشيخ ابى عبد الله البهلولى هذا وقوله ما يحيى ميت العزائم، ويحرك ساكن الهمم للسمو الى مراتب ابطال الرجال، والمنافسة فى بلوغ اقصى غايات الكمال، ولكنه - كما قال - نهج نهج الرشاد للقوم فلم يعلموا، وضرب لهم المثل فلم يفهموا، وما يذكر الا اولو الالباب.

فاتح ابن 17 عاما

قرات قطعة مختارة للكاتب الفرنسي الشهير الفونس ضوضى عنوانها: (ربان ابن 15 عاما) وهو ولد انقذ سفينة كانت اشرفت على الغرق فى نهر السين، بسبب عاصفة هوجاء فى ليلة ممطرة بينما كانت السفينة قد دنت من مرفاها باحد جسور باريز. وقد تولى هذا الغلام سُكّان السفينة بدلا من الربان الذى كان يلتمس للسفينة المخارج والموالج حذرا من اصطدامها بقواعد الجسر وذهابها مع التيار.

وهذا العمل فى حد ذاته ليس من الغرابة بمكان، فان صبيان النوتية يتولون اعمالا مثله فى كل وقت وحين، ولكنه لما اقترن به من نجاة اسرة ذات صبية صغار كان قد طغا عليهم اليم بمرأى ومسمع من امهم الحنون، ومن مشاهدة الجماهير الغفيرة من سكان العاصمة الباريزية الذين كانوا فوق الجسر لتلاعب المياه والريح بالسفينة المستهدفة للغرق وتشوفهم لانقاذها، ولبيان الكاتب العبقرى الذى كسا هذه القصة حلة سحرية بديعة، فانه يظهر للانسان من اعظم العجائب، واكبر الغرائب.

تذكرت حين قرأت هذه القطعة كثيرا من شباننا الابطال، الذين أتوا باعمال تحير العقول وتدهش الالباب. وفيهم من لم يبلغ الحلم اصلا ومن يعد صبيا من الصبيان. ومن اول من خطر على بالى، أدريس

الثانى بانى مدينة فاس وممهد المغرب بعد ابيه ادريس بن عبد الله، فانه لما توفى والده كان لا يزال حملا ببطن امه. ولما وضعته رشح لعرش المغرب وقام مولاه راشد وصيا عليه. فرباه احسن تربية وعند ما بلغ 11 سنة، بايعه اهل الحل والعقد وقام بتدبير ملك المغرب اتم قيام. وقد افصح عن طيب عنصره وكبر نفسه، فى خطبته الفريدة التى القاها يوم مبايعته فى سنه ذاك. وهى بعد الصدر: «ايها الناس، انا قد ولينا هذا الامر، الذى يضاعف للمحسن فيه الأجر، وللمسىء الوزر، ونحن والحمد لله على قصد جميل، فلا تمدوا الاعناق الى غيرنا فان ما تطلبونه من اقامة الحق انما تجدونه عندنا» .

ثم جلت بفكرى جولات بين القديم والحديث، فوقفت على معجزة من معجزات هذه الامة العربية، والملة الاسلامية، ما اظن انه تأتى لغيرها مثلها، ولا ان الزمان ياتى بنظيرها، وهى محمد بن القاسم فاتح السند، وثغور الهند، فى ايام الوليد بن عبد الملك، وهو غلام دون العشرين بل ابن 17 عاما بالتدقيق كما قال فيه الشاعر:

ساس الرجال لسبع عشرة حجة ✡ ولداته عن ذاك فى اشغال

وقال حمزة بن بيض الحنفى:

ان المروءة والسماحة والندى ✡ لمحمد بن القاسم بن محمد

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ✡ ياقرب ذلك سؤددا من مولد

وكان محمد بفارس وقد امره الحجاج ان يسير الى الرى ثم رده

اليه وعقد له على السند، وجهزه بكل ما يحتاج اليه حتى الخيوط والمال. فصار محمد الى الثغر وفتحه وتوغل فى البلاد وقاتل الملوك وكسر الاصنام، واسلم على يده كثير من الاهالى، وجبى الجبايات الكثيرة، وغنم الغنائم الكبيرة، وقام هناك باعمال يستحيل ان يقوم بها الا القواد المجربون، والساسة المحنكون.

قالوا (١) ونظر الحجاج فاذا هو قد انفق على محمد بن القاسم ستين الف الف، ووجد ما حمل اليه عشرين ومائة الف الف. فقال: شفينا غيظنا وادركنا ثارنا وازددنا ستين الف الف درهم وراس داهر، وهو ملك من ملوكهم.

فهذا، وابيك، السؤدد الذى لا يلحق، والشأو الذى لا يسبق، ومن يستطيع ان يرفع رأسه معتدا بمثل هذه الاعمال، او يطاول هذه الامة بشبه هؤلاء الرجال؟ لا جرم ان الامم فى طور نهوضها وفجر حياتها تاتى بالعظائم، وتنجب الاعاظم، ولكن مثل محمد بن القاسم قليل من قليل، ويكاد يكون فردا ليس له مثيل.

ولسنا نريد ان نفاخر الناس ونطاولهم بما كان للاجداد، من امجاد، فيقال لنا بلسان الحال، ان لم يكن بلسان المقال:

. . . . . . ☆ نعم الجدود ولكن بيس ما ولدوا

وانما نريد ان نثير الهمم ونشحذ العزائم من ابناء هذه الامة المجيدة، ليقتدوا

(١) فتوح البلدان للبلاذرى.

باسلافهم ويتبعوا سبيلهم فى الجهاد والعمل لادراك غايات الشرف والعز، وتسنم ذرى العظمة والفخار. ويربوا ابنيهم على النجدة والشجاعة، ويذكوا فيهم روح المغامرة والاقدام، فلا ينشأوا جبناء خوّارين يخافون الغول ويحلمون (بالبوبع) ويهابون الظلام، ويتصورون الجن فتذوب اراداتهم امام ذلك التصور الغريب، الى غير ذلك من سىء الامثال، واوهام الخيال، فمن المحقق ان هذا الاسلوب فى التربية عقيم بل ضار يضعف الهمم ويميت العزائم، وهو السر فيما نرى عليه جل الشبان من الوهن والضعف والعجز والكسل، فهم يتعشقون المعالى، ولكن يريدون ادراكها بالامانى، ولهذا قل من ينجح منهم فى خطة او عمل، والفشل اقرب اليهم من كل قريب.

فياأيها الناشىء المسلم هذه قدوتك السامية فاقتد بها، وسر على نهجها، ولا تشغل نفسك بالسفاسف والاوهام، فتذهب زهرة عمرك هباء بغير نفع. واعلم ان حياة الجد والعمل تكسبك العز والشرف وتكون فخرا لك ولقومك ولابناء ملتك ما كرّ الجديدان وتعاقب الملوان.

وانما المرء حديث بعده ✡ فكن حديثا حسنا لمن وعى

العلم المستعمل

قيل للمهلب: بم ادركت ما ادركت؟ قال: بالعلم. قيل له: فان غيرك قد علم اكثر مما علمت ولم يدرك ما ادركت. قال: ذاك علم حمل، وهذا علم استعمل!

وصدق والله، فها نحن اولاء انى ذهبنا وحيثما توجهنا نرى علماء من مختلف الطبقات ومتباين الاعمار، فيهم شيخ الاسلام، وقدوة الانام، وفيهم العالم العلامة، والمحقق الفهامة، وفيهم الفقيه النبيه، والفاضل النزيه، كما ان فيهم الشيخ والكهل والشاب. ولم يكونوا قبل اليوم قليلين ثم كثروا ولا كثيرين ثم قلوا، بل انهم ولله الحمد، كثرة قبل اليوم واليوم، وكمية وافرة الآن وقبل الآن. ولكن ما ذا اغنوا عن هذه الامة وما ذا اكفوها؟ وأى أثر صالح او عمل نافع نراه لهم فيها؟.

لقد مرت على الناس اوقات شدة عديدة زاغت فيها الابصار، وبلغت القلوب الحناجر، وكاد المومنون يظنون بالله الظنون، ومع ذلك هل سمعنا بان جماعة من العلماء قامت تدرأ عن الامة ما دهاها، وتكشف عنها ما عراها؟ أم بالعكس كنا نسمع ان كثيرا منهم يقفون فى صف الخصم المغير، والظالم المبير؟.

لقد انغمس الناس فى حمأة الجهل بالدين الى قمم رؤوسهم، واستورطوا فى حبالة البدع والاهواء المذمومة حتى الفوها وصاروا

لا يفكرون فى الانفكاك عنها، فهل عمل العلماء شيئا لانقاذهم من تلك الهوة السحيقة وارشادهم الى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم؟ أم انهم كانوا يضلون الامة على علم ويزيدونها عماء بمظاهرتهم على تلك الاحوال؟

فعلم علمائنا اذن، انما هو من قبيل العلم المحمول لا من قبيل العلم المستعمل، لم يؤثر فى صلاح انفسهم واصلاح احوالهم فلا يمكن ان يؤثر فى الامة بشىء من ذلك. ولذا ترى اكثرهم متكالبين على الدنيا حريصين على الجاه، يتدنّون لذلك اكثر من تدنى العوام والجهال. وهم مع ذلك متظاهرون بالورع والزهد الكاذبين، واذا خاطبتهم فى شىء مما يجب عليهم بمقتضى الوراثة النبوية تملصوا وتفصوا من ذلك باعذار واهية من مثل قوله تعالى: «ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة»، وقوله: «عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم» ناسين او متناسين ان التهلكة فى خصوص هذه الآية المراد بها الامساك عن الانفاق فى الجهاد بدليل ما قبلها وهو «وانفقوا فى سبيل الله».

وأما الآية الثانية فقد روى فيها عن ابى بكر رضى الله عنه قوله: ان الناس يضعون هذه الآية فى غير موضعها، ألا وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ان القوم اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، والمنكر فلم يغيروه، عمهم الله بعقابه. والحديث اخرجه ابو داود والترمذى وغيرهما.

فقل لى بربك أين العالم الذى يقول للظالم فى هذا العصر: ظلمت

ولا يبالى، ويتقدم للمنكر يغيره من غير ان يخاف فى الله لومة لائم؟

أما ان العلماء فى عصور المجد وعهود العز، لم يكونوا على هذه الحالة التى وصفنا. وانما كانوا ائمة الهدى ومصابيح الظلام، ودعاة الاصلاح، وقادة الرأى العام، فكانوا عين الامة التى بها تبصر، وعقلها الذى به تفكر، فلا يبرم امر ولا يقطع رأى الا بمشاورتهم ومداخلتهم. وبذلك كان امرنا الى تقدم وقدرنا فى ارتفاع.

ولا نطيل فى الدعوى ونقصر فى الدليل، فدونك شاهد القطع على ذلك من صميم التاريخ المغربى. ولو اردنا مئات الشواهد لما اعوزتنا، انما نكتفى لضيق المجال بهذا:

يذكر المؤرخون والفقهاء كذلك ان عامل المنصور ابن ابى عامر دخل الى فاس حين تغلب عليها فقال لاهلها: اخبرونى عن ارضكم اصلح هى أم عنوة؟ فقالوا لا جواب لنا حتى ياتى الفقيه - يعنون ابا جيدة - فجاء فسأله فقال: ليست بصلح ولا عنوة، وانما اسلم عليها اهلها. فقال لهم خلصكم الرجل.

كان العامل يرمى الى بسط اليد عليها او مشاركتهم فيها فأفسد عليه قصده اذ اجابه بتلك الكلمة التى لم تترك له وجها للتدخل فى امر الارض، ومضمونها هو: «المغرب للمغاربة».

وابو جيدة هذا هو ابن احمد اليزغيشنى المتوفى حوالى سنة 365 دفين باب ابى جيدة بفاس وكانت تعرف قبل بباب المسافرين.

فكأن اهل فاس تركوا تسميتها بذلك وسموها باب ابى جيدة تخليدا لذكره حيث ناضل عنهم فى ذلك الموقف المشهود.

فأين نظير ابى جيدة بين علمائنا الذى يناضل عن طرداء الاستعمار وقد نزعت منهم اراضيهم من غير ان تكون مفتوحة اصلا لا صلحا ولا عنوة ؟.

أما ان اصغرهم ليعلم اكثر مما كان يعلم ابو جيدة، ولكن الاعتبار بالكيفية لا بالكمية. او كما قال المهلب: ذاك علم حمل، وهذا علم استعمل!

فاستعملوا ايها العلماء علمكم، تحمدوا امركم عند الناس وعند ربكم.

دلنى على السوق

جاء الاسلام والعرب كما شاءت لهم الاهواء المتفرقة، والنحل المختلفة، يخبون فى بيداء الجهالة ويضعون، لا يعرفون من سبل العيش والارتزاق الا الاغارة والسلب والنهب. كل يثب على جاره ويستذل القوى الضعيف. يعدون ذلك من مفاخرهم ولا يتحرجون من اتيان ما هو افظع وابشع، فيئدون البنات ويتفون من الاولاد ويتقاسمون النساء تقاسم الاثاث ويتوارثونهن توارث المتاع. وهم فوق ذلك سادرون فى ظلام دامس من حياتهم اليومية المملوءة بشتى الجرائم ومختلف الآثام. قد هجروا العمل واخلدوا الى البطالة والكسل، والفوا النوم والخمول، واستكانوا الى الدعة والراحة فكانما نودى فيهم بحى على العجز والتواكل، فهم لا يفكرون فى شىء ولا يعملون، ولا يحبون كذلك من يفكر ويعمل!

فلما ناداهم المنادى واهاب بهم الداعى ان افيقوا من سباتكم العميق، واهجروا هذه الحياة الدنيئة، والعيشة غير المرضية، وهبوا الى منافسة الاحياء والعمل على صلاح المعاش والمعاد، قاموا فى وجهه قومة رجل واحد ينكرون عليه ما جاء به ويقولون ما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين. فلقى منهم جهدا فى المقاومة، وعنادا فى المعارضة، لكنه بما اوتى من الصبر الجميل والدُّربة السياسية، والبصر النافذ بطرق

الدعوى والحجاج ومواقعها من نفوس خصومه كتب له ان ينتصر عليهم ويخرج من المعركة ظافرا.

ففى اقل من القليل، وفى سنين معدودة، استطاع صلى الله عليه وسلم ان يقلب نظام الجماعة العربية رأسا على عقب، ويبين للناس كافة مساويه العديدة حتى جعلهم يلمسون الخلل فيه، ويصرف وجهة نظرهم الى ما هو اسمى وارفع، الى المثل الاعلى فى الحياة، الى سبيل الذين خدموا الانسانية ومصالح البشرية عامة فانتشلوها من هوة الشقاء، وانقذوها من شفا حفرة الهلاك. وهكذا اصبح اولئك الجهلة الجفاة، دعاة المدنية الفاضلة ومثال الاخلاق الكاملة، يستشعرون معنى الواجب ويعرفون قيمة العمل وينصفون الناس من انفسهم ويشتغلون فيما يعود عليهم نفعه بعد ان كلوا وملوا من فوضى الاجتماع الذى عاشوا فيه دهورا طويلة.

وها انا مورد لك حكاية عن بعضهم، تَقِفُك على مبلغ تاثير التعاليم الاسلامية فى انفسهم، وتريك البون الشاسع بين ما كانوا عليه قبل الاسلام مما وصفته لك وما صاروا اليه بعد مما يناقض ذلك تماما، وهى مما روى فى البخارى وغيره:

قدم عبد الرحمن بن عوف مهاجرا من مكة الى المدينة، فآخى النبى صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الانصارى وكان سعد ذا غنى وسعة، فعرض على عبد الرحمن ان يناصفه اهله وماله،

وكان له زوجتان. فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك فى اهلك ومالك، دلنى على السوق!

فذهب وباع واشترى اياما ولم يلبث ان تزوج فلقيه النبى صلى الله عليه وسلم وعليه اثر طيب. فقال ما شأنك يا عبد الرحمن؟ فقال: تزوجت امرأة من الانصار. قال فما سقت لها؟ قال وزن نواة من ذهب.

فمن هذه الحكاية تتمثل النفس الابية التى لا تقيم على الهون ولا ترضى بالعيش الدون، وافراط العفة حتى عما هو ضرورى ومحبب الى كل احد، خصوصا مع الفاقة والغربة وشدة الحاجة. كذلك تتمثل منها شعورا كبيرا بالمسؤولية امام الضمير، وميلا شديدا الى الحركة والعمل مع الرضى بالحال وعدم التشوف واتباع النفس لما هو ملك للغير. وكل هذا مما غرسه الاسلام فى قلب عبد الرحمن لما خالطته بشاشة الايمان، يعاكس على خط مستقيم ما كان معهودا من حالهم فى الجاهلية حتى من زعمائهم وقادتهم، بل ان لهؤلاء كان الحظ الاوفر والقدح المعلى فى تلك الفعال.

فما انفذ دعوة الاسلام فى القلوب واسرع الناس الى استجابتها! وما احكم تعاليم الملة الحنيفية وابلغ تاثيرها فى نفوس البشر!

أو تزنى الحرة ؟

فى هذه المرة، سأتحدث عن المرأة العربية المسلمة الى اختها المرأة.. ولا أخصص. فسيكون حديثى هذا عاما الى النساء عموما، لان موضع العبرة فيه حرى ان يلفت نظر السيدات كلهن من اى جنسية كنّ والى اى ملة انتسبن. بما انهن سيجدن فيه نموذجا عاليا ومثالا ساميا مما كان عليه نساء صدر الاسلام من اخلاق فاضلة وخلال نبيلة، هى الغاية فيما تتوخاه المراة اليوم من تهذيب وكمال.

فليس السفور والتهافت على الازياء الحديثة والمنافسة فى مظاهر البذخ والترف، مما تشرف به المرأة ويعلو قدرها، ويكسبها اعجاب العقلاء واحترام النبلاء، وانما هو سمو الاخلاق وعزة النفس والمحافظة على شرف الاسرة فالجنس فالامة. والحرية الشخصية التى يتذرع (1) بها المفلوكون (2) والمفلوكات من شبان وشابات العصر المتطوحين فى مهاوى هذه الموبقات ليست الا قلبا للحقائق بالنظر الى ما تضعه من الاغلال فى اعناقهم، او لغوا من الكلام بالنسبة الى ما كان يفهمه سلفنا الصالح من مدلول تلك الكلمة الحقيقى ومعناها الصحيح الذى لا تجوز فيه.

---

(1) يتوسل.
(2) الحمقى.

ودونك هذه القصة التى تقفك على مبلغ تغلغل روح الفضيلة فى نفوس القوم من حيث تريك كيف كان فهمهم للحرية على حقيقتها فلا تجد فى قولنا مبالغة او تهويلا :

فى كتب الحديث والسير لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة من بيعة الرجال اخذ فى بيعة النساء وهو على الصفا والمروة، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه اسفل منه يبايعهن بامره ويبلغهن عنه. فكانت هند بنت عتبة امرأة ابى سفيان، او هند الهنود كما دعيت فى شعر الجاهلية، متقنعة متنكرة خوفا منه عليه السلام ان يعرفها فقال: أبايعكن على ان لا تشركن بالله شيئا. فرفعت رأسها وقالت: والله لقد عبدنا الاصنام، وانك لتاخذ علينا امرا ما رأيناك تأخذه على الرجال، تبايع الرجال على الاسلام والجهاد. فقال: ولا تسرقن. فقالت: ان ابا سفيان رجل شحيح وانى اصبت من ماله هنات، فما ادرى اتحل لى ام لا ؟ فقال ابو سفيان ما اصبت من شىء فيما مضى وفيما غبر فهولك حلال. فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها. فقال وانك لهند بنت عتبة ! قالت نعم ! فاعف عما سلف يانبى الله عفا الله عنك. فقال: ولا تزنين. فقالت: أو تزنى الحرة؟...

فهذه امرأة من نساء الجاهلية درجت من مهدها وتقلبت فى حجرها فنشأت على عوائدها وتخلقت بآدابها حتى جاء الاسلام فلم يكن الا ان يقبح منها ماقبح ويحسن ماحسن فتترك هى القبيح وتتمسك بالحسن

ثم يبايعها النبى صلى الله عليه وسلم فيمن بايع من النساء على ان لا تشرك بالله شيئا ولا تسرق ولا تزنى، فتصيح من اعماق قلبها بتلك الكلمة الملتهبة شعورا واحساسا بالكرامة والطهر والعفاف، التى هى ابلغ ما قيل فى التعبير عن نفسية المرأة الصالحة القادرة قدر انوثتها المتحملة لعظيم مسؤوليتها.

ولا ينقضى سحر البيان وسر البلاغة فى تلك الكلمة عند هذا الحد فحسب، بل هى تجاوز ذلك الى ما هو اغلى واعلى فتضرب لنا مثلا حكيما وتعطينا درسا بليغا فى معنى الحرية الصحيحة وبيان حدودها التى يجب ان لا تتعداها ليلا تصبح نوعا من الاباحية المزخرفة المنمقة.

فليتدبر هذا المغرورون بمباهج المدنية الحديثة، وليقصروا من تقليد الاجانب فى تلك المفاسد الاخلاقية، وليرجعوا الى عوائدهم وتقاليدهم السامية التى كانت الى حين ما تعد من مميزات ومشخصات قوميتهم الضائعة، فان لها - لو علموا - يرجع الفضل حالا ومستقبلا فى حفظ كياننا العام من التلاشى والاضمحلال. لان مبناها او مبنى كثير منها فى الاقل، على الاسلام وشريعته المطهرة ولا ازيدك بالاسلام معرفة فانه الحصن الحصين الذى حمى هذه الامة من ضربات الدهر المتوالية عليها، خصوصا فى هذا الابان الذى بلغت فيه غاية الضعف والانحلال. ولولاه لكان قد مُحى اسمها من صحيفة الوجود منذ ازمان طويلة.

وبعد، فبارك الله فى المرأة التى تعرف قدر نفسها وتحافظ على شرف جنسها، وتقوم بواجبها نحو بيتها ووطنها فترضى الخالق والناس.

يوم المصاف أم ليلة الزفاف

لما كانت الامة الاسلامية ناشرة لواء سلطتها على اطراف المعمور، وصيتها الرفيع يملأ ما بين الخافقين، وكان الانتماء اليها شرفا وفخرا، والاحتماء بها عزاً ومنعة. وكان قولها مسموعا وأمرها مطاعا، وكان الشرق بها رافع الرأس وقد أديل من عدوه الغروب، لم يكن رجالها على ما هم عليه الآن من الاستكانة والخضوع والذلة والصغار. بل كانوا كما عرفنا من استقراء تواريخهم وتتبع سيرهم رجالا ذوى نفوس ابية، وانوف حمية، لا يرضون بالهون، ولا يكتفون من العيش بالدون. دأبهم العمل على ما فيه مجد الاسلام وعزه كى يكونوا هم الاعلون ولهم اليد على من سواهم. فالحسيب منهم لا يعتد بحسبه الموروث وانما يضيف اليه اخر مكتسبا. والعامة لا تطيب انفسهم الا بمنافسة الخاصة بمساعيهم ومآتيهم لاكتساب المجد، واقتناء الحمد.

ومن خفى عليه هذا فلينظر كيف جابوا الاقطار ودوخوا الامصار فى اقل من نصف قرن، ثم اسسوا تلك المملكة الشاسعة الابعاد المترامية الاطراف، واقاموا يذبون عن حماها بالسيف والقلم اكثر من عشرة قرون فلا يبلغ العدو فيهم مقصدا ولا ينال منهم مأربا.

ويرى الباحث فى اخبارهم المستقصى لاحوالهم ان مما غلب عليهم ويكاد يعد من مميزاتهم خلقين اثنين: علو الهمة فلا احد منهم كان

يرضى بالتى هى ادنى او يستعظم امراً مَهْما كان عسير المنال. والصبر وبه كانوا يتغلبون على الصعاب. ويذللون العقاب، ولا يخفى ما ينطوى تحت هذين الخلقين من الخصال الفضيلة والخلال النبيلة كالشجاعة والثبات والحكمة والتدبير وغيرها.

ومن هنا جاءت استهانتهم بالموت وبيعهم ارواحهم بيع السماح فى سبيل اعلاء كلمة الله والفوز بالشهادة التى لا جزاء لها الا الخلود فى النعيم المقيم. فهم قد خبروا الحياة الدنيا وذاقوا لذاتها الفانية فعزفوا عنها ورغبوا فى ضرتها الباقية وتمكن حبها من نفوسهم فصار الموت الذى هو سبيلها احب اليهم من الحياة التى تحول بينهم وبينها حتى ان الواحد منهم ليعادل بين يوم المصاف، وليلة الزفاف. وهذا مع حياة العز والشرف والمجد والرفعة التى كانوا يحيونها. فكيف بنا نحن وقد سِمنا الخسف والمهانة، والذل والاستكانة، لا جرم ان صرنا معدودين فى الموتى وحقت علينا كلمة العذاب.

واسمع الآن هذه القصة لتصحح الرأى الذى اسلفناه ان بقى لك فيه اشتباه:

ذكر فى فوات الوفيات عن حاتم الاصم، قال: كنا مع شقيق البلخى فى مصاف نحارب الترك، فى يوم لا نرى الا رؤوسا تطير ورماحا تقصف، وسيوفا تقطع. فقال لى كيف ترى نفسك يا حاتم فى هذا اليوم؟ تراه مثل ما كنت فى الليلة التى زفت اليك امرأتك.

قال: لا والله! قال: لكنى والله ارى نفسى هذا اليوم مثل ما كنت تلك الليلة. ثم نام بين الصفين ودرقته(1) تحت رأسه حتى سمعت غطيطه.

وبعد، فهل كنت تعرف قبل هذا ان شقيقا البلخى من بناة صروح تلك المدنية الرفيعة، وحماة ثغور تلك الدولة المنيعة، وهو ذلك الفقير العانى، والصوفى الفانى؟ وهل رأيت كيف كان سلف هذه الامة يعملون لنصرتها ورفعتها سواء منهم العظيم والحقير، والغنى والفقير، والصوفى أيضاً؟

فليسمع متصوفتنا الذين ربما وجد من بينهم من يدلّ على عورات المسلمين ويكون عوناً فى تملك رقابهم!.

---

(1) الترس الذى يتقى به فى الحرب.

ويؤثرون على انفسهم

فضيلة الايثار على النفس ليس فى قائمة الفضائل اشرف منها ولا انبل واكرم. لان اليها مردُّ جل الفضائل من الجود والحلم والشجاعة وغير ذلك. بل يكفى فى فضلها انها ضدُّ الانانية التى تُطوِّح بصاحبها فى تيه الضلال، حيث يلقى حتفه غير ماسوف عليه.

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم الذى هو المثال المجسَّم لجميع الفضائل، كثير الايثار لاصحابه والناس عامة يدرأُ عنهم بنفسه، ويحبوهم بما ملكت يمينه فلا يدخر عنهم شيئا ولو قوتَ عياله. وحسبك بما قاله على كرم الله وجهه «كنا اذا اشتد البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم» وقال صفوان ابن امية «لقد اعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اعطانى وانه لمن ابغض الناس الى. فما برح يعطينى حتى انه لاحب الناس الى»

وكان الصحابة يؤثرونه على اموالهم واولادهم وانفسهم، فعلى بات فى فراشه ليلة الهجرة حين ائتمرت به قريش لتقتله معرضا نفسه لخطر محقق. وابو دجانة تترَّس عليه صلى الله عليه وسلم يوم احد فصار النبل يقع على ظهره وهو منحن يقيه بذلك. وكثير منهم فعلوا ذلك فى هذا اليوم حتى ان طلحة وُجد به نيف وسبعون جراحة وشلّت يده مما يدفع عن رسول الله.

وكذلك كانوا بعضهم لبعض حتى انه لما قدم عليه السلام المدينة مهاجرا وآخى بين المهاجرين والانصار كان الرجل من الانصار يقول لاخيه من المهاجرين هذا مالى فانظر اطيبه فخذه، ويقول له آخر هؤلاء زوجاتى فايهن اعجبتك انزل لك عنها، وكان المهاجرى يرث الانصارى دون ذوى رحمه وقرباه. وقد مدحهم الله تعالى بذلك فنزلت فيهم هذه الآية: «ويوثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة».

على هذا الاساس قامت دعوة الاسلام فانتشرت فى مدة قليلة فى اطراف جزيرة العرب ثم عمت سائر الاقطار وكان كلما حل ركاب الاسلام فى بلد ورأى اهله ما عليه المسلمون من انكار الذات وتفان فى الغيرية، اكبروا تلك النفوس وبلغوا من الاعجاب باصحابها مبلغا عظيما، فما يلبث السواد الاعظم منهم ان يدخل فى دين الله طائعا مختارا بل مغتبطا مسرورا، ويكون من حال المسلمين وسلوكهم دعوة اليه وارشاد.

وبذلك انجز الله ما وعدهم من الخلافة فى الارض والنصر على الاعداء، فرفعوا للدولة الاسلامية منارا عاليا بقى يشع على العالم بانوار المدنية الفاضلة قرونا متطاولة، حتى خلف من بعدهم خلف غلبوا المصلحة الخصوصية على مصلحة الجمعية واتخذوا الانانية شعارا، والفردية دثارا، فتناكرت الوجوه بعد التعارف، واختلفت القلوب بعد التآلف، ونشأ ما هو طبيعى فى هذه الحال من التكالب على جيفة الدنيا القذرة.

فضرب الله الامة ببعض الذل فما يرفعها عنها الا ان تراجع سيرة سلفها الصالح.

والآن نورد لك مثالا مما بلغ فيه الايثار عند اولئك الاسلاف مبلغا يكاد لا يسلم به العقل لبعده عن حد الامكان، وهو ايثار جريح مثخن يجود بنفسه فى لهفة شديدة الى الماء لجريح مثله فلا يكاد يصل اليه الماء حتى يوثر به ءاخر قد اجهده العطش كما اجهده فلا يصل اليه حتى يموت ثم يموت الثانى ثم يموت الاول، وما بُلّ لواحد منهم صدى، فاعجب لهذا العقل الواعى فى تلك الساعة الحرجة ما كان اشد تسديده واعظم تاييده !:

روى ابو نعيم وابن منده وابن عبد البر عن حبيب بن ابى ثابت ان الحرث بن هشام وابن اخيه عكرمة بن ابى جهل وعياش بن ابى ربيعة واخا الحرث بن هشام لامه جُرحوا يوم اليرموك. فلما أثبتوا دعى للحرث بن هشام بماء يشربه، فنظر اليه عكرمة فقال: ادفعه الى عكرمة فلما اخذه عكرمة نظر اليه عياش فقال: ادفعه الى عياش فما وصل الى عياش حتى مات ولا وصل الى واحد منهم حتى مات.

وقد تكررت هذه الواقعة مما يدل على انهم فى هذا الامر سواء، فروى ابن المبارك عن ابى جهم حذيفة العدوى. قال: انطلقت يوم اليرموك اطلب ابن عم لى ومعى شنية (1) من ماء واناء فقلت ان

---

(1) قربة صغيرة بالية .

كان به رمق سقيته من الماء ومسحت به وجهه فاذا انا به ينشغ (1).
فقلت اسقيك ؟ فاشار اى نعم. فاذا رجل يقول ءاه ! فاشار ابن عمى
ان انطلق اليه فاذا هو هشام بن العاص اخو عمرو بن العاص فاتيته
فقلت اسقيك؟ فسمع آخر يقول: ءاه! فاشار هشام ان انطلق اليه،
فجئت فاذا هو قد مات! فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات! فاتيت
ابن عمى فاذا هو قد مات!

هذه اخلاق القوم التى بها بلغوا ما بلغوه من العز والسؤدد.
وتالله لا تقوم لنا قائمة ولا ينفعنا علم ولا عمل ما دامت اخلاقنا لم
تجر على هذا المثال من الاستقامة والكمال، وما دامت الانانية بالخصوص
ضاربة بيننا وبين الصالح العام نطاقا محكما تنقطع دون خرقه الآمال،
ويرحم الله الامام مالكا حيث يقول: «لن يصلح ءاخر هذه الامة
الا بما صلح به اولها»

(1) يقيء

لسان حال الدولة الاسلامية

دولُ الافرنج أعلت شأنها　　　وانا فى كل شىء دونها
وبنوها احرزوا كيانها　　　وبنىّ الغُفل نهب بينها

يابنى الاسلام ما هذا الجمود ؟

سارت الدول تترى للأَمام　　　وامتطت من ذروة المجد السَّنام
وانا رهن اختلال فى النظام　　　واحتكام من عُداتى واهتضام

يابنى الاسلام ما هذا الجمود ؟

اقدم الافرنج لم يستأخرو　　　بسطوا سلطانهم واستعمروا
ثم انتم بعد لم تعتبروا　　　فكأن لم تسمعوا أو تبصروا

يابنى الاسلام ما هذا الجمود ؟

وب ياعالم اسرار الورى　　　ما لقومى يرجعون القهقرى
ما لهم صاروا الى ما قد ارى　　　بعدما كانوا ارتقوا شُم الذُّرى

يابنى الاسلام ما هذا الجمود ؟

ما لقومى لا يخلُّون الوسن　　　ما لهم لا يتحامون الدَّدن(1)
ما لهم لا يطلبون المرتهن　　　من حقوق لهم او للوطن

يابنى الاسلام ما هذا الجمود ؟

---

(1) اللعب واللهو.

مالهم لم يفعلوا فعل «كمال» (1)، فيفوزوا بالرضى من ذى الجلال
افيرضوا ان يداسوا بالنعال افيرضوا من عُداتى بالنكال

يا بنى الاسلام ما هذا الجمود؟

رحم الله أباة العرب انهم فى الحق امى وابى
لم يقُم فى مشرق او مغرب قائم مثلهم قد برّ بى

يا بنى الاسلام ما هذا الجمود؟

جادها الله عظاما ناضره وحباها برّه فى الآخره
خدمتنى بالعلوم الفاخره وحمتنى بالجيوش الزاخره

يا بنى الاسلام ما هذا الجمود؟

انما الاسلام بالعرب سما وبهم اوفى على قُطب السما
من به قدما تحدّى الامما فاستكانت غير اعراب الحمى؟

يا بنى الاسلام ما هذا الجمود؟

يا لَقومى فاعرفوا غابركم وارفعوا بين الملا حاضركم
ان يكن ربُّ العلا ناصركم كيف لم ترموا به قاهركم؟

يابنى الاسلام ما هذا الجمود؟

الفُتوحات التى ليست تُنال انتم ابطالها يوم النزال

---

(1) الناظم لا يستحسن من فعل مصطفى كمال غير حركته التى انتهت بتحرير بلاده وما عدا ذلك فهو غير مراد.

فانهضوا نهضة شعب متغال للوغى بالبيض والسّمر العوال

يابنى الاسلام ما هذا الجمود؟

ارفعوا رايتكم عند الطراد ثم نادوا فى العدا باسم الجهاد

واضربوهم ضربة تُورى الزناد يخلُ منهم لَكمُ وجه البلاد

يا بنى الاسلام ما هذا الجمود؟

لولايتكم احب الينا

قال جوستاف لوبون: «لم يعرف التاريخ فاتحا اعدل ولا ارحم من العرب» وهذه شهادة من تقرّى تواريخ الامم قديمها وحديثها، وتعرّف اتجاهات الموجات البشرية فى جميع ادوارها. فما كان لنا ان نقول شيئا بعد قول هذا الحكيم الفرنسى المطلع، لولا ان النفس تتشوّق الى بسط دلائل ذلك القول ليحصل الاطمئنان اليه ولا يبقى فيه ادنى ريب لمرتاب:

فالعرب اول ما توجّهت انفسهم للفتوح لم يكن ذلك عن رغبة فى ربح مادى او كسب دنيوى وانما هى امانة تبليغ الرسالة الإلاهية التى نيطت بهممهم وطُوّقت بها اعناقُهم، فدفعتهم الى اختراق الآفاق وجوب اطراف البلاد مبشّرين بما جاءهم من الله من نور وكتاب مُبين على الخطة التى اختطها الرسول صلى الله عليه وسلم فى الدعاية فى كتابه الى هرقل وغيره. وقد جاء فى ذلك الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله الى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. اما بعد فانى ادعوك بدعاية الاسلام. أسلِم تَسلَم، يُوتك الله اجرك مرتين فان تولّيت فان عليك إثم الأريسيّين (1) (قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الّا

---

(1) الاكرة والفلاحون من الشعب.

نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون»

ولكن لو تُركت الناقة وفصيلها لرضعها. والامر كان هنا بالعكس، فان المسلمين ما كادوا يجهرون بعبادة ربهم ويعلنون بالدعوة الى دينهم حتى قامت الامم كلُّها فى وجوههم تثيرها عليهم حربا شعواء، وتشنها غارة عمياء، فاضطروا اولا للدفاع عن انفسهم وثانيا الى محاربة الامم التى تقف فى سبيلهم لتخلى بينهم وبين ما هم بصدده من الدعوة والارشاد، وهكذا كانت جميع الحروب التى خاضها المسلمون فى بداءة امرهم وءاخره حروبا دفاعية لا هجومية، باعثها الغيرة على الحق والعدالة، لا شهوة سفك الدم والقتال.

ثم بقى الفرق بينهم وبين اعدائهم فى كيفية هذه الحروب، فأما فى حروبهم مع العرب فتكفى الاشارة الى غزوة أحد والفظائع التى ارتكبها خصومهم فى تلك الغزوة من التقتيل والتمثيل وقول رئيسهم ابى سفيان ابن حرب بعد انتهاء المعركة اثناء خطاب المسلمين ملؤه الشماتة والتشفى: «وانكم ستجدون فى قتلا كم مُثلة لم آمر بها ولم تسؤنى»

واما فى قتالهم مع غير العرب فحسبك انهم كانوا دائما الى النصف فما دُون من عدوهم، هذا فى المدد. واما فى عُدّة الحرب من السيوف والدروع والخيل والمؤن كلها فلا نسبة بينهم اصلا، ومع ذلك فقد كان الدستور الذى عليه ينهجون، والقانون الذى به

يحكمون، هو هذه الوصية الصادرة من ابى بكر لجيش اسامة بن زيد لما انفذه الى الشام فقال: «لا تخونوا ولا تغدِروا ولا تغُلّوا ولا تُمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا وتحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا للاكل. وسوف تمرون بقوم قد فرغوا انفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له»

ومثلها كثير مما صدر من ابى بكر وغيره من الخلفاء لقوادهم وعامة جنودهم، وهى معلومة مبثوثة فى كتب الفتوح والتواريخ فلا نطيل بها. ولعمر الحق ان هذه هى الغاية التى لا تدرك والمثل الاعلى فى الرحمة والشفقة والرفق بالانسانية المعذبة.

وقد تقول هذا القول! فما هو من الفعل؟ والجواب حاضر عند البلاذُرى فانه روى فى فتوح البلدان له قال: «وحدثنى ابو حفص الدمشقى قال حدثنا سعيد بن عبد العزيز قال: بلغنى انه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقبالُهم اليهم لوقعة اليرموك، ردُّوا على اهل حمص ما كانوا اخذوا منهم من الخراج وقالوا: قد شُغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فانتم على امركم. فقال اهل حمص: لولايتكم وعدلكم احبُّ الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم.

ونهض اليهود فقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة

حمص الا ان نُغلب ونجهد. فاغلقوا الابواب وحرسوها وكذلك فعل اهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود وقالوا: ان ظهر الروم واتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه والا فانّا على امرنا ما بقى للمسلمين عدد. فلما هزم الله الكَفرة واظهر المسلمين فتحوا مدنهم واخرجوا المقَلِّسين (1) فلعبوا وادوا الخراج»

وانت لا يعزب عنك ان هذا الخراج الذى كان المسلمون ياخذونه فى مقابلة حماية من دانْ بطاعتهم، هو مبلغ ضئيل جداً لا نسبة بينه وبين ادنى جباية من هذه الجبايات الكثيرة التى ياخذها المتسلطون اليوم من الشعوب التى ترزح تحت نِير استعبادهم. فبَان بهذا صدق تلك الجملة التى صدّرنا بها هذا الفصل من كلام الحكيم لوبون. والا فقل لى بربك اين هذه المراحم الربانية فى فتوح العرب، من التقتيل والتشريد واستعباد النفوس واستبزاز الاموال وتخريب الذمم وافساد الاخلاق فى غزوات شعوب المدنية الغربية الاستعمارية المبدأ والغاية، الاستبدادية المنزع والمقصد؟

ملكنا فكان العفو منا سجية ... فلما ملكتُم سال بالدّم ابطح
وحلّلتم قتل الاسارى وطالما ... غدونا على الاسرى نمُنّ ونصفح
فحسبُكم هذا التفاوتُ بيننا ... وكُلُّ اناء بالذى فيه ينضح

---

(1) التقليس الضرب بالدف والغناء، وقلس القوم استقبلوا الولاة عند قدومهم بذلك.

عربى حر

زار المندوب الانجليزى بفلسطين ذات مرة مستشفى القدس متلطفا بالمرضى فوقف على سرير احدهم وهو عربى من جرحى ثورة (1936) وسأله ما يوذيك؟ قال الجريح: ان اراك! فكظمها المندوب وقال هل تريد شيئا؟ فقال: ان تخرجوا من فلسطين وتدعوها لابنائها. وقد نظمنا هذه القصيدة اعجابا بروح هذا العربى الحر واستنكارا لما ياتيه الانجليز من المظالم فى بلاد المراحم.

عربى سيم خسفا وهوانا   أَتُرَجِّى منه سِلْما واماناً؟
هو نِضوُ البؤس الا انه   ناقم يسعرها حربا عوانا
اتظن الجرح اوهى عزمه؟   ساء ظنا بالفدائى وشانا!
جِذوة للحقد لم تزدد على   نفخها الا اضطراما واضطغانا
عدِّ عن اسعافه فى بؤسه   انه اولى له ان يتفانى
عدِّ عن تنميق الفاظ له   لست تلقى منه ضعفا او لَيانا
لا تُساومه على اخلاصه   انه لله بالاخلاص دانا

أتمنيه وقد اتخذته فعل صياد بكى الصيد دهانا(1)
ما مُناه وهو من الامه فى إسار غلّ عقلا ولسانا؟
ما مناه غير ان تتركه يتحلّى الموت إمّا الموتُ حانا
ان طعم الموت احلى عنده منك اذ تُوليه عطفا وحنانا
وكذاك الحر يُصمى قلبه أن يرى الظالم يزداد افتتانا

***

يا سماء تتنزّى(2) شُهُباً هذه الاهداف! فارمى من رمانا
نَيْزكٌ(3) يقذف او صاعقة وعلى الظالم ينزو نزوانا
هو أجدى عندنا من مطر ديمةٍ يفتن فى الارض افتتانا
ذاك او زلزلة من تحته فاذا بالارض مادت ميدانا
وهو يهوى غرّةً فى قعرها ترجف الاعضاءُ منه رجفانا
يا ترى (فيزوف4) ما اخمده؟ ليته ثار فلم يثن عنانا
والخِضَمُ(5) الغمر - ياجداله - لو تمطّى ملقيا منه الجرانا

---

(1) اى نفاقا، والصياد حكايته معروفة، يصطاد الطير فيكسر جناحه ويلقيه فى خرجه وعيناه تذرفان مما يحمل الريح من الغبار فيقول طائر غبى لآخر ما ارقه علينا الا ترى الى دموع عينيه؟ فيجيبه الطائر الحكيم لا تنظر الى دموع عينيه ولكن انظر الى عمل يديه.

(2) اى تغلى وتتقد.

(3) نجم متساقط. (4) بركان بايطاليا معروف.

(5) الخضم البحر العظيم والمراد هنا المحيط الاطلسى والغمر الكثير الماء وتمطى تمدد والجران عنق البعير من قولهم القى البعير جرانه.

فاتاها فعلةً خالدة — أخت (أتلنتيد 1) بل اعظم شانا
حبذا الطاعون يجتاح الملا — انه الوافدُ يحيي الموتانا
والهواءُ الاصفر المنخى على — مَن غدا من جنسه (2) خبا هدانا
ودوِىّ الداء(3) يردى (لُندنا) — فيقيناها كما (روما). وقانا

***

إيه ابناءَ فلسطين لقد — خضتم لُجَّ المنيات عيانا
واقتحمتُم جاحم الموت فلم — تأتلوا فيه ضرابا وطعانا
صُبرا ليس يبالى واحد — بالُوف من علوج تتدانى
عزّلا الا من العزم الذى — ردَّ نيران العدا تحكى الجنانا
فضربتم للورى امثلة — عزَّ ادراك لها او أن تدانى
وغدوتم قُدوة حسنى لمن — يبتغى فى الشرق ان يبنى كيانا
ورفعتم هامةَ العرب التى — اطرقت من ضربة الدهر زمانا
فثباتاً فى مجال الموت او — تاخذوا الحق وتستوفوا الضمانا

---

(1) في بعض الاساطير ان قارة كانت بالبحر الاطلنطيقى تسمى باسمه غرقت فيه وذهبت ولم يبق لها اثر.
(2) اى من بنى الاصفر فهو من الاستخدام.
(3) يعنى الامراض الاجتماعية،وفي نظر بعض المؤرخين ان سقوط روما كان بسبب ما فشا فيها من علل وادواء اجتماعية خطيرة فهذا وجه التنظير

وازع الاسلام

ليس هناك وازع قوى شديد الشكيمة على الانسان يزجره عن ارتكاب الموبقات ويوقفه عن تعدى الحدود كالوازع الدينى. وليس فى الاديان دين يقوى وازعه قوة الدين الاسلامى ويبلغ مبلغه فى التأثير على النفوس وكبح جماحها عند الثورة. ولأمرٍ مَّا نرى المسلمين على ما هم عليه من ضعف التربية وقلة العلم اقلَّ الامم انغماسا فى حمأة الجرائم واندفاعا الى مواطن الشرور.

ذلك ان تعاليم الدين الحنيف اذا استمكنت من نفس الشخص الذى يدين به، ايقظت فيه روحانيته النائمة فوصلت بينه وبين اللَّانهاية باسباب متينة لا يقوى على قطعها وان رغب فيه. هذا توحيد الله يجذبه الى ملكوت السموات بدوام توجُّهه بفكره وقلبه الى ربه راجيا منه وحده المعونة والهداية الى الصراط المستقيم، وهذا تعظيمه المعقول، للنبى والرسول، يبعثه على الاهتداء بهديه والاستنان بسنته كى يدخل مدخله، وينزل نُزُله، وهذه الصلاة يُستدرج بها خمس مرات فى كل يوم فكيف لا تستجيب لداعيها نفسه، ولا يتأثر بوحيها حسُّه؟ ودون ما تحركه فيه جميع الشعائر الاخرى من عوامل التقوى، فانه يصير بممارسة عمله للخير ومداومة سعيه للنفع كما يُمرِّنه على ذلك شرع الاسلام من يوم يدركه سنُّ التكليف او من قبل،

شخصا كامل الانسانية يتذوق معانى الاستقامة ويلتذُّ بها، ويكون باعثه على الاستقامة هو حب الاستقامة وطلبها لا غير.

أن دينا يكون احد أقانيمه هذا (ولا يجرمنكم شنئان قوم على الا تعدلوا، اعدلوا هو اقرب للتقوى) لا يستغرب ان تنفجر فى نفوس المومنين به ينابيع الفضيلة، ويكونوا احرص الناس على الظهور بمظهر الانسانية الكاملة المستعلية عن الاغراض الدنيئة والشهوات السافلة. أليس يُحببهم فى العدل للعدل؟ وفى شرع النفس التى تقيم العدل للعدل لا يجوز ان يبدل الشيطان حكم الله فيميل بالحاكم مع الهوى ويطمس منار الحق، بما ان النفس اذا كانت هى مبعث النور الذى يهدى سواء الطريق فان الشيطان لا يهتدى اليها سبيلا لانه لا منفذ له الا فى الظلام.

وقد كانت احوال السلف الصالح جارية على هذا السَّنَن اللاَّحب (1)، فكانوا يُعدُّون اساتذة العالم فى الاخلاق. والفضل كلُّ الفضل فى ذلك للتربية الاسلامية التى كانوا ياخذون بها انفسهم فيحمدون مغبَّتها فى العاجل والآجل.

وهاك مثلا من امثلةِ تمكُّنِ هذا المبدأ منهم وصدورهم عنه فى جميع امورهم:

روى مالك فى الموطأ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان

(1) الطريق الواضح.

يبعث عبد الله بن رواحة الى خيبر، فيخرّص (1) بينه وبين يهود خيبر. فجمعوا له حليا من حلى نسائهم فقالوا هذا لك وخفف عنا وتجاوز فى القَسم. فقال عبد الله بن رواحة: يامعشر اليهود والله انكم لمن ابغض خلق الله الى، وما ذاك بحاملى على ان احيف عليكم، فأما ما عرضتم من الرشوة فانها سحت وانّا لانا كلها. فقالوا بهذا قامت السموات والارض !

فهل تريد منا بعد هذا ان نستدل على ضعف الوازع الدينى عند هؤلاء القوم الذين خاسوا بالعهد وتآمروا رجالا ونساء على رشوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتمكنوا بذلك من جر نفع ضئيل لا يسمن ولا يغنى من جوع، الا انه على كل حال اختلاس حرام اقدموا عليه وهم يعلمون انه ما بذلك تقوم السموات والارض ؟

واذا ضلّت العقول على علْـــم فماذا تقوله النصحاء
واذا البينات لم تغن شيئاً فالتماس الهدى بهنّ عناء

(1) يقدر ويحزر التمر وهو في نخله.

الديموقراطية الاسلامية

لم يغرب القائلون بان الاساس الذى قامت عليه مدنيـة اوروبا الحديثة هو الاسلام، وان قوانين الاجتماع وأصول السياسة ونُظم الحكم لم تؤخذ الا عن المسلمين ولم يكمل تقريرها ويحكم وضعهـا الا فى الزمن الذى كانت حكومة الخلفاء تشمل ما بين القارات الثلاث، ءاسيا وافريقيا واوروبا، فلا ينوء كاهلها بهذا الحمل الثقيل، ولا يبدو منها عجز ولا اضطراب فى تدبير هذه الممالك الشاسعة الابعاد المترامية الاطراف، فان هذا الدين الاسلامى الشريف، او هذا القانون السماوى المرفّع هو اول من طبّ روح الانسانية بعدان كانت فى النزع، وعرف لها حقها المغتصب وايّد حريتها المنترعة منها قسرا، فأفاض على العالم من إشعاع نوره عناصر الحياة، واصبح هذا النوع الانسانى المشرّف بالعقل والبيان ـ كما اراد له خالقه اول مرة ـ نموذج الكمال المنشود، ومثال القوة الباهرة الناطق بسر الوجود.

هناك كثير من علماء الغرب بـلـه (1) الشرق، من يعترف بهذه الحقيقة التاريخية الواقعية ويعضدها وينصرها فى كتبه ورسائله ومحاضراته عن الحضارة الاسلامية العربية ويورد عليها ءالاف الامثلة والشواهد مما لا مجال للشك فيه ولا مورد للطعن عليه. فلسنا نجازف

---

(1) اى دع.

بالقول او نلقى الكلام على عواهنه اذا نحن نطقنا بكلمة هى الى الاعتدال اقرب فى تقدير هذه الحضارة الاسلامية العربية وما افاده منها العالم الغربى ولا يزال يفيده قديما وحديثا.

بلى ! ولولا خوف السآمة والتطويل لعددنا لك من هؤلاء العلماء واسماء مؤلفاتهم كثيرا، بل لاوردنا نحن لك من هذه الامثلة والشواهد ما يذهب بكل شك او ريب يخالجك فى صدق ما قلناه.

ولماذا نبعد كثيرا وننحرف عن مقصودنا الاهم من هذا الفصل القصير، وهذا نابليون بونابرت من اعظم الرجال الذين انجبتهم اوروبا الحديثة، انما اقتبس قانونه واستقى موادّه من الشرع الاسلامى الشريف والقانون الرومانى ! لا، فان الروح الاسلامية متجلية فيه اكثر من غيرها، واذا علمت ان هذا القانون النابليونى هو الذى درجت عليه اوروبا فى تخريج دساتيرها الى الآن، عرفت السبب وبطل العجب. دع عنك فنون العلم وفروع المعرفة التى لا زال البعض منها على حاله التى كان عليها فى ايام العرب وباسمه الذى أسْموه به.

نريد بعد هذا ان نضرب لك مثلا مما وصلت اليه الحكومة الاسلامية من العدل والتشرُّب بروح الديموقراطية الحق وتقديس مبادىء الاخوة والمساواة فى جميع الحقوق، فلا تستكثر بعد ذلك ما تراه وتسمعه اليوم من ما جريات واحوال بعض الدول الاوروبية التى تغلغل فيها ذلك الروح الى الصميم بعد ما سبق فتغلغل فى نفوس

اجدادك وسلفك الصالح وامتزج بلحمهم ودمهم وجرى منهم مجرى طعامهم وشرابهم، فكانوا هم الذين سنُّوا سنَّته للناس وعبَّدوا طريقه المارين فيه :

روى مالك فى الموطأ قال: خرج عبد الله وعبيد الله ابنا عمر بن الخطاب فى جيش العراق فلما قفلا مرَّا على ابى موسى الاشعرى وهو امير البصرة فرحب بهما وسهَّل ثم قال: لو أقدر على امر انفعكما به لفعلت. ثم قال بلى ! هاهنا مال من مال الله اريد ان ابعث به الى امير المومنين فأُسلفُكماه فتبتاعان به متاعا من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال الى امير المومنين ويكون الربح لكما فقالا وددنا ذلك. ففعل.

وكتب الى عمر بن الخطاب ان ياخذ منهما المال، فلما قدما باعا فاربحا فلما دفعا ذلك الى عمر قال: اكلّ الجيش اسلفه مثل ما اسلفكما ؟ قالا :لا. فقال عمر بن الخطاب: ابنا امير المومنين ! فأسلفكما. ادّيا المال وربحه !

فاما عبد الله فسكت. واما عبيد الله فقال ما ينبغى لك يا امير المومنين هذا، لو نقص المال او هلك لضمنّاه فقال عمر أدياه ! فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله فقال رجل من جلساء عمر (وهو عبد الرحمن ابن عوف) ياأمير المومنين لو جعلته قراضا. فقال عمر قد جعلته قراضا. فاخذ عمر راس المال ونصف ربحه، واخذ عبد الله وعبيد

الله ابنا عمر بن الخطاب نصف ربح المال.

هذه المساواة فى الحقوق بين الامير والمامور والرئيس والمرءوس، وهذا التصلب فى الحق، وهذه الصرامة فى دين الله او قل فى سياسة الدولة، هى التى بنت مجد اسلافك ورفعت مقامهم على كيوان، وبسطت يدهم على رقاب العالمين، وجعلتهم يديرون دفة السياسة العالمية فيسكن الكون لسكونهم ويتحرك بما فيه لتحركهم. ثم لما تنكبوا عن هذا الطريق وسلكوا فجاً غير هذا الفج، أدال الدهر منهم ونكبهم نكبة ليس لها نظير. فمتى يا ترى تسير انت على خطتهم الاولى وتتبع سيرتهم الناجحة ؟

القضاء فى الاسلام

لا يتقدم البشر خطوة جديدة فى سبيل المدنية الحق، ولا يفتح البشر بابا من ابواب المعرفة النافعة كان مغلقا عليهم الا و يزدادون ايمانا بهذا الدين المحمّدى وتصديقا برسالة صاحب الدعوة الاسلامية صلى الله عليه وسلم. فانه ما من تقدُّم ولا فتح فيه للبشرية خير، وفيه للبشرية صلاح، الا وقد تكفّل الاسلام بتحقيقه، وتمهيد طريقه، فالباحثون يكدون اذهانهم ويتعبون ابدانهم ليقفوا فى النهاية مع الاسلام جنبا لجنب، ويدا فى يد، اذ يجدونه قد سبق فقرر ما قرروا وأصّل ما أصّلوا، فلا يسعهم الا الخضوع لعظمته وجلاله، والاعتراف بسموه وكماله.

وهذا هو السر فى كونه ختام الاوضاع الالاهية التى ناط الله بها منذ الازل سعادة الخلق وهناءهم وكان كلٌّ واحد منها يوضع لقوم معينين فلا يَعْدُو سَدَّ حاجاتهم خاصة، وكفاية رغائبهم فقط، حتى جاءت نوبةُ الاسلام وكانت العناية الازلية قد قضت بجعله الختام، فمن الضرورى ان يكون محققا لآمال البشر عامة، مزيحا لعلل الانسانية جمعاء، صالحا لكل زمان ومكان، جامعا بين مطالب الروح والجسد فى اسلوب حكيم ونظام بديع.

وقضية ذلك ان يبقى موكب الحضارة سائرا تحت لواء الدين

لعدم التناقض بينهما، فلا يخشى على الحضارة القائمة فى ظلال الاسلام ما يخشى على حضارة المسيحية اليوم من العدم والاضمحلال، والفناء والزوال، لعجز المسيحية عن مجاراة الرقى العصرى من جهة وعدم استغناء الحضارة عن الدين من جهة اخرى.

وان العاقل ليرى فى هذا سير العالم المتمدن نحو الاسلام بخطى ثابتة لا علينا ان تكون سريعة او بطيئة. انما علينا ان نقول انه قد شعر بان مسيحيته لا تُغنى عنه فتيلا فى حماية حضارته من هذا التدهور الاخلاقى والفوضى الاجتماعية، فهو ان لم يسرع بالانسلاخ عنها والصبوء منها ويتمسّك بالعروة الوثقى والحبل المتين، لا يلبث ان يسحقه طاعون الحدثان، ويلحقه ما لحق اليونان والرومان.

واذا اردت ان نذكر لك مثالا من اقتفاء اوربا أثر الاسلام وسبقِ الاسلام الى اثبات النظريات التى تكتشف اوربا انها خير للانسانية بالذات، فهذه مسألةُ المسائل عند المشترع الغربى اليوم، وهى هل يسوغ للقاضى اعتبار ظروف الجناية وحيثيات الجانى مما له دخل فى ايقاع الحكم على الجانى وتخفيف المسؤولية عنه أم لا؟ يدهشك ان نقول لك ان المشترع الاسلامى منذ ثلاثة عشر قرنا وزيادة لم يتردد فيها لحظة ولم يلبث حين عرضت له ان حكم فيها حكما سُمّطا لا معقب له ولا راد.

وهاك وجه القضية وصورة الحكم نقلا عن موطأ الامام مالك رضى الله عنه:

عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب ان رقيقا لحاطب سرقوا ناقة لرجل من مُزينة فانتحروها. فرفع ذلك الى عمر بن الخطاب. فامر عمر كثير بن الصلت ان يقطع ايديهم ثم قال: اراكَ تُجيعهم. ثم قال عمر: والله لأغرمنَّك غرما يشق عليك. ثم قال للمزنى كم ثمن ناقتك؟ فقال المزنى قد كنتُ والله امنعها من اربعمائة درهم. فقال عمر: اعطه ثمانمائة درهم.

ومعلوم ان قوله اراك تجيعهم رجوع منه عن الحكم بالقطع اعتدادا بسبب السرقة، وكذا وقع فى رواية «ثم ارسل وراءه بعد ان ذهب بهم» اى ولم يقطعهم. ونزيدك على هذا ان عمر لم يمتنع من قطع هؤلاء العبيد فقط، بل لقد منع ولاته عام الرمادة من ان يحدّوا سارقا كما ثبت فى سيرته. والرمادة مجاعة كانت فى ايامه.

فلتطأطئ الهام، امام عدل الامام، وسماحة الاسلام.

الحرية والمساواة

هذه المبادىء القويمة والسنن الحسنة التى لا تتحقق الا فى النظر ولا تبرح حيز الفكر هى والعدم شىء واحد. لان واضعها ان كان يقصد لخير الانسان ونفع الاوطان، فان عدم امكان تطبيقها على ما وضعها له قائم مكان عدم القصد بالمرة، وان كان يقصد البحث المجرد فظاهر ان الفائدة منه عدمية ولا شك. فالعبرة اذاً بالفعل لا بالقول، وعليه يكون المصلح حقا من يضع كيفية التنفيذ فى صلب خطة الاصلاح. والا صار عمله مثلا مضروبا فى الفشل والخيبة، ولا سيما ان تعلقت به النفوس ومالت اليه الانظار كبرنامج الرئيس (ولسن) المشهور (1).

لقد قامت الثورة الفرنسية على اساس الحرية والمساواة فازالت كثيرا من المظالم وعفّت على نظام الطبقات، ومع ما يُمكن ان يُقال فى نجاحها او عدمه، فان نتيجتها كانت قاصرة على قومها فى بلادهم لم تتجاوزهم ولو الى البلاد التى ساقها القدر للوقوع تحت حكمهم. فانه من المعلوم ان الثوار ما رجعوا سيوفهم الى اغمادها حتى فُتحت الجزائر، والمظالم التى ارتكبها هؤلاء الثوار واولادهم واحفادهم فى

(1) ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة فى الحرب العظمى السابقة وبرنامجه يتلخص فى تحرير الشعوب واعطائها حق تقرير مصيرها، وقد قامت له دعاية عظيمة وكان من اسباب موالاة كثير من شعوب العالم للحلفاء، ثم تبين انه خدعة من خدع الحرب.

بلاد الجزائر (وقانون الاندجينا1) الذى وضعته حكومة الواضعين لدستور الثورة، سل عنهما ابناء الجزائر المساكين يخبروك عنهما اصدق الخبر.

ثم بلاد امريكا من اوسع البلاد حرية واهلها من اعرق الامم فى الحياة الديموقراطية. وهم مع ذلك امة عملية اول نظرها تجريب وءاخره تجريب. ولكن كيف تتفق هذه الفضائل مع قتل السود والتمثيل بهم واحراقهم بيد الجمهور فى الشوارع العمومية بين سمع الحكومة وبصرها لا لذنب اجترحوه ولا لإثم اقترفوه، بل لانهم سود فقط ومن فصيلة غير فصيلة (العم سام2) فهل تشك انهم لم يشربوا حب الحرية فى قلوبهم ولم يفهموا معنى الديموقراطية حق الفهم، فهم امة خيالية تقول ما لا تفعل وتحكم بغير ما تشرع ؟

حاشا العرب او قل المسلمين من هذا العيب، فانهم لقنوا العالم فضيلة العدل وظهروا بها فى المواطن كلها، وبشّروا فى الناس بعقيدة الحرية وعاقبوا اعاظم رجالهم على كفرها (3) وكان من امرهم ما

---

(1) هو قانون زجرى للمخالفات السياسية التى يرتكبها اهالى الجزائر، وفضلا عن خطأ الفكرة المبنى عليها فانه فى نهاية الصرامة.

(2) لقب يقال على الاميركان كما يقال على الانجليز (جون بول)

(3) هذا كما فى قضية عمر مع عمرو بن العاص واستقدامه له من مصر بسبب المصرى الذى ضربه ابن لعمرو بن العاص وقوله له منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحرارا ؟

رواه البخارى فى التاريخ والبارودى عن الحسن البصرى قال :

حضر باب عمر سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وابو سفيان ابن حرب فى نفر من قريش من تلك الرؤوس، و صهيب و بلال (1) من اولئك الموالى الذين شهدوا بدرا. فخرج اذن عمر لهم وترك اولئك. فقال ابو سفيان لم ار كاليوم قط، ياذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت الينا. فقال سهيل بن عمرو - وكان رجلا عاقلا: «ايها القوم، انى والله ارى الذى فى وجوهكم. ان كنتم غضابا فاغضبوا على انفسكم، دعى القوم ودعيتم، فأسرعوا وابطأتم، فكيف بكم اذا دعوا يوم القيامة وتركتم؟»

لا جرم ان هذه هى الديموقراطية الحقيقية وكل ما عداها ادّعاء. فمتى يهتدى العالم الى سلوك سبيلها فيعيش آمن السرب فى ظلها؟ ومتى ينتهى تبجح الغرب وتباهيه بالحرية والمساواة الكاذبين؟

---

(1) كلاهما عبد والاول رومى والثانى حبشى .

انما المومنون اخوة

في الحديث الشريف «مثل المومنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» وهذا الكلام هو في مضمونه طلب وان خرج مخرج الخبر، فيقتضي ان يكون ما بين المومن واخيه من الارتباط والتعلق هو كما بين المرء ونفسه التي لا يريد بها الا الخير ولا يجر لها الا النفع ولم ينطو على غش لها اصلا ولم يُبيت اساءة لها قط. على ان سياق الخبر فيه ابلغ دلالة على المراد، اذ يكون الامر قد جرى على ذلك المنوال بين المومنين حتى صح ان يخبر عنهم به.

وهذا واقع في عهده صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، ولو لم يكن حالا عامة عند جميع المسلمين لان هذه الاخبار يُراعى فيها الغالب والمعتدّ به من الناس المخبر عنهم.

تأمل في حالهم عند الهجرة ومواخاة النبي صلى الله عليه وسلم بينهم كيف كان الانصار يبرون اخوانهم المهاجرين ويترضّونهم ويدخلون السرور عليهم ويقضون حاجاتهم حتى ان منهم من شاطر اخاه اهله وماله. فلما قسم النبي صلى الله عليه وسلم اموال بني النضير لم يعط من الانصار الا رجلين، سهل بن حنيف وابا دجانة. وقال لهم ان شئتم قسمتم للمهاجرين من اموالكم ودياركم وشاركتموهم

فى هذه الغنيمة، وان شئتم كانت لكم دياركم واموالكم ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة. فقالت الانصار: بل نقسم لهم من اموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها، فنزلت «والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما اوتوا(1) ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة»

وقيل نزلت فى ابى طلحة الانصارى وكان نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف ولم يكن عنده ما يضيفه به فقال: الا رجلا يضيف هذا رحمه الله؟ فقام ابو طلحة فانطلق به الى رحله وقال لامرأته اكرمى ضيف رسول الله. فنوّمت الصبية واطفأت السراج وجعل الضيف يأكل وهما يُريان انهما يأكلان معه ولا يفعلان فنزلت.

وايّاً كان فانها تدل على ما كان عليه القوم من الجود والايثار، وبالتالى من الاخوة الصادقة والايمان الكامل، ولولا ذلك لما طابت نفوسهم بالبذل لما فى ايديهم والسماح بما تعين لهم وهم احوج خلق الله وافقره الى ذلك. فما هذه الايثارات الا امثلة عملية للتوادد والتراحم والتعاطف التى يأمر بها الحديث. وهى امثلة بليغة لان التواد بالمال وخصوصا اذا كان كثيرا مع الحاجة الى اقله، هو ابلغ من التواد بالقول والعاطفة، اذ المال اعلق بالنفوس والوطُ(2) بالقلب من كثير

---

(1) اى اوتيه المهاجرون دونهم.
(2) بمعنى اعلق.

من الاشياء. فبذله يدل على مزيد الوفاء والاخلاص والاستعداد لبذل غيره بالاحرى.

وقد خلص هذا الوصف بعد الصحابة للتابعين فمن بعدهم، قال ابو يزيد البسطامى: غلبنى شاب من اهل بلخ(1) حيث قال لى: ما حد الزهد عندكم؟ فقلت اذا وجدنا اكلنا واذا فقدنا صبرنا. فقال هذا فعل كلاب بلخ عندنا. بل اذا فقدنا شكرنا واذا وجدنا آثرنا.

ثم كان الناس بعدُ فى الاستمساك بموجبه والتواصى بحقه على حسب قوتهم وضعفهم فى الايمان وفهمهم لروح الاسلام وما انطوى عليه من القضايا والاحكام التى جاءت تفسيرا لمجمله وتوضيحا لمشكله كحقوق الامام على الرعية وحقوقهم عليه وحقوق المسلمين بعضهم على بعض فى العموم وحقوق الوالد والولد والزوجين والجار وغيرهم فى الخصوص مما لو اردنا تفصيله لطال بنا الكلام.

ويكفى فى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: من لم يهتم بامر المسلمين فليس منهم. ومعلوم ان الاهتمام بالامر لا يكون الا باشغال القلب به والتفكير فيما يحيط به من عوامل وظروف، والعمل بجد واجتهاد على صلاحه ونجاحه. وهكذا يكون امر المسلمين دائما الى سداد وجمع، عكس ما هو عليه اليوم من اختلال وفرقة.

ومن الغايات فى هذا الباب هذه الحكاية التى بسببها كتبنا

---

(1) مدينة مشهورة بخراسان.

هذا الفصل وهى ما حكاه القشيرى فى رسالته عن السّرى السقطى قال: انا منذ ثلاثين سنة فى الاستغفار من قولى الحمد لله مرة. قيل وكيف ذلك؟ قال وقع ببغداد حريق فاستقبلنى بعض الناس فقال نجا حانوتك، فقلت الحمد لله، فمنذ ثلاثين سنة انا نادم على ما قلت حين اردت لنفسى خيرا دون اهل السوق من المسلمين.

فانظر الى فنائه فى هذا الوصف حتى انه لم يَنْسَ فلتة من فلتات اللسان رأى انها لا تجامعه ولا تقتضى التخلُّق به، فهو يستغفر الله منها ويستقيله فيها منذ ثلاثين سنة. وهذا مقام عال جدا وان كان مما يشمله الحديث، اعنى مما يطالَب به كافة المومنين. لاكنا لا نجازف كثيرا فنطالب عوام المسلمين - والمسلمون اليوم كلهم عوام - بالاتصاف بهذا الخلق حتى ياخذوا بأبعد غاياته، فانا نعلم ان التربيب بالتدريج انفى للتحريج.

وعليه فنحن نقنع من الجمهور الاسلامى ان لا يكون بعضه جنداً للعدو يغير به على بعض، وان لا يكون منه عيون للاجنبى تطلعه على عورات المسلمين وتوذى واحدا منهم فى النفس او العرض او المال، وان لا يكون فيه من ينتهك حرمات الاسلام ويركب ظهور المسلمين ويستذل كرامتهم، وان يكون كل فرد من افراده عونا لاخوانه المسلمين فى الشدائد ونصيراً لهم فى الملمّات ومُنجداً لهم فى الحاجات، لا يتصامم عند النداء، ولا يتباله حين الخطاب، ولا يبخل ساعة البذل.

ثم ليقُم كل مسلم فى نفسه بما يجب عليه من الحقوق لاهل بيته من زوجه واولاده وقرابته، فان بصلاح الافراد تصلح الجماعات، واُولى الحلقات فى نظام المجتمع هى الاسرة، فمهما اهتمّ كل مسلم بصلاح اسرته صلحت المجتمعات الاسلامية فى الشرق والغرب، وصلاحُها بشير الخير وعنوان الفلاح .

الطريقة العملية للاصلاح

المسلمون اليوم هم افقر الامم الى الاصلاح، ذلك الاصلاح العام الذى ينتظم جميع مرافق الحياة ويشمل كل وسائل العيش. لانهم وقد حادوا عن الطريق المستقيم، وتهاونوا بتعاليم دينهم القويم، اصبحوا وفى حياتهم الاجتماعية والسياسية والادبية ثُغرات لا يمكن سدُّها الا بنهضة صادقة موطِّدة العزم على العمل باخلاص ونية، كل فى دائرة اختصاصه وناحية نفوذه ليكون العمل اتمّ والنفع اعم.

فالغنى يبذل جزءا من ماله ليسد خللا فى حياة المسلمين ويكمل نقصا فى مظهر من مظاهر الاجتماع الاسلامى. والعالِم يكرس جهوده لايقاظ شعور المسلمين وتنبيههم الى ما يجب لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات ليكونوا من اوفرِ الامم او اوفرها على الاطلاق علما بما خلق الله الانسان لاجله واستخلفه فى هذه الارض. والوجيه يستخدم وجاهته فى تخفيف ويلات المستضعفين من ابناء ملته، ويكون لهم ملجأ ياوون اليه عند الشدائد والمحن.

وجِماعُ القول ان يشعر كل فرد ممّن له حيثيّة ما بالمسئولية التى تقع على عاتقه فى دوام تأخُّر المسلمين، فيهب للعمل بقدر وسعه وطاقته، إن وحده او مع غيره، تاركا للاعتذار نابذاً للتملُّل من وراء ظهره. فلا يزال يجد ويجتهد حتى يُنجز ما طُوِّقه من عمل، او

ينجح ما قام به من سعى فى سبيل مصلحة دينه ووطنه.

حينئذ يُرجى لهذه الامة الاسلامية حياة جديدة، وان تعود كما بدأت عظيمة باعمالها قوية برجالها، ولا تبقى خالفة فى الامم عوض ان تكون فى المقدِّمة، رازحة تحت نير الاستعباد وقد أُريد لها ان تكون يداً على من سواها، وبدون هذه الوسيلة سوف يتأخر نهوضُ هذه الأمة مدة طويلة، لان التبعة ستبقى غير مُعيَّنة، والمسئولية موزَّعة بين جميع الافراد فيسهل على كل التخلُّص منها وعدم الاعتداد بها.

ويكون القول مع ذلك بان المسلمين قد شُعروا بواجباتهم فى الحياة، ضربا من الهراء، لان الشعور ما قارنه عمل، والّا فهو مجرَّد أمل. أرايت الى شخص يكون جالسا بسفح جبل فيشعر بان جلمودا من الصخر يريد ان ينقضَّ عليه كيف يهبُّ مذعورا ويتحول من المحل الذى كان فيه الى غيره ؟ ذلك هو الشعور الحقيقى الذى يبعث على تجنُّب الخطر ويحمل على اتِّقاء الضرر.

وقد كان السلف على اجتماعهم وائتلاف ايديهم فى العمل لما فيه خير الامة جمعاء، لا يزال الفرد منهم ينافس فيما فيه مصلحة عامة ونفع متعد، بحيث تعمل الجماعات بمالها من قوى واستعدادات، ويعمل الافراد كذلك عملا دائما مستمرا، لا يقصدون الّا رفعَ مستوى امتهم واحلالها المحل اللائق بها بين الامم. فكيف بنا نحن وعمل الجماعات

اليوم لا وجود له البتة، والافراد العاملون لقلتهم كانهم لا يوجدون؟

هذا عثمان ذو النورين مجهز جيش العسرة (1) وثالث الخلفاء الراشدين على فضله وسابقته وعمله مع النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة على نصرة الاسلام وعزه ورفع قدره واعلاء كلمته، يضرب لنا مثالا فى العمل الفردى النافع كل النفع المفيد جدَّ الافادة بابتياعه لبئر رومة وجعلها للمسلمين يستقون منها:

وتحرير الخبر على ما عند ابن عبد البر فى الاستيعاب ان بير رومة كانت ركية (2) ليهودى يبيع المسلمين ماءها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشترى بير رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه فى دلائهم وله بها مشرب فى الجنة؟ فاتى عثمان اليهودى فساومه بها فأبى ان يبيعها كلها. فاشترى نصفها باثنى عشر الف درهم فجعله للمسلمين. فقال له عثمان رضى الله عنه ان شئت جعلتُ على نصيبى قرنين وان شئت فلى يوم ولك يوم، فقال بل لك يوم ولى يوم. فكان اذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين، فلما رأى ذلك اليهودى قال افسدت على ركيتى فاشتر النصف الآخر. فاشتراه بثمانية ءالاف درهم.

---

(1) كان ذلك في غزوة تبوك وقد اختلفت الروايات فى مبلغ ما جهزه به مع الاتفاق على انه مبلغ عظيم.

(2) بيرا.

فكم من مشروع مثل بير رومة اليوم بيد اليهود وغيرهم يتخذونه وسيلة لارهاق المسلمين واذلالهم وتسخيرهم واستغلالهم، فهل من مسلم مثل عثمان يتقدم لاستخلاص ذلك من ايديهم بنية صالحة، فيعز دينه وامته ويحوز بذلك رضا الله والناس ؟

ان هذه هى الطريقة العملية للاصلاح، فبها تُسد مفاقر المسلمين وتُكفى احتياجاتُهم، وبها يضمن استقلالهم الاقتصادى وهو قبل الاستقلال السياسى، ويتعلمون الاعتماد على انفسهم فى الشاذة والفاذة، وبدون ذلك لا تقوم لهم قائمة ابدا.

المدينة الفاضلة

طالما اجهد الكتّاب قرائحهم وأجال الحكماء قِداح النظر فى هذه المعضلة الانسانية وهى ايجاد السبيل الى العيشة الراضية والحياة السعيدة فى هذا العالَم المملوء بالمتاعب والاكدار، مُؤملين ان تسود المحبة وتعمّ المساواة بين سائر افراد البشر فيتعاونون ويتبادلون المنافع من غير ان يكون الدافع لهم الى ذلك ما هو مركوز فى طباعهم من الحرص والطمع، بل الواجب الانسانى المحض وتعاون الافراد على جلب المنافع التى بها بلوغ كمال النوع وارتقاؤه الى اوج العلاء. وهذا ما يُسمّيه اولائك الكتاب والحكماء عادة بالمدينة الفاضلة.

فكتب افلاطون والفارابى ومورو (1)، وكتب غيرهم فى هذا الموضوع كثيرا وافاضوا فى البحث عن مسائله ووسائله ورءوسه وذيوله، وكان منهم المتطرف والمعتدل، فالمتطرف الذى تخيّل المدينة

---

(1) لافلاطون في ذلك كتاب الجمهورية المشهور، وللفارابى كتاب اراء اهل المدينة الفاضلة، ولتوماس مورو الكاتب الانجليزى المعروف كتاب الاوطوبيا، ولتولستوى الكاتب الروسى المشهور والمنفلوطى كتابة مليحة في الموضوع، ويظهر ان فكرة المدينة الفاضلة كانت متغلغلة في نفوس الشعب المغربى، ففضلا عما نسوقه اثناء هذا الفصل من حكاية لا ننسى ما كانت تحكيه لنا الجدات في حال الصبا عن المدينة التى وطن اهلها انفسهم على تبادل المنافع من غير عوض وجعلوا «الصلاة على النبى» وسيلة للتعامل بينهم.

الفاضلة جنة على وجه الارض واهلها ملائكة كرام قد زايلتهم أعراض البشرية تماما وتخلصوا من نوازع النفس الامارة بالسوء فصاروا هياكل من النور المحض أو ارواحا علوية تسرح فى الفضاء الواسع وتمرح فى ملكوت السموات.

وقريب من هذا مذهب «السوبرمانيين» الذين ينتظرون ظهور الانسان المتفوق فى المستقبل. ويستندون فى تعضيد رأيهم هذا الى ناموس الارتقاء العلمى الذى يتدرج فيه الانسان يوما فيوما، ومبدأ الانتخاب الطبيعى وبقاء الافضل الذى بنيت عليه الفلسفة النشوئية المادية الحديثة.

والمعتدل الذى سلك سبيلا وسطا بين الانسانية المنحطة اسيرة المطامع والشهوات الدنيئة والانسانية المتفوقة الى ابعد غاية. ونحن نرى ان مسلك هذا الفريق المتوسط هو الجدير بان يطلق عليه اسم الانسانية المتفوقة، اذ انه لم يجاوز بعد حدود الانسانية الى ما تطوح فيه الفريق الآخر من الاشتطاط والافراط.

وعلى كل فان جميع ذلك لم يعد ان يكون مجموعة أمان واحلام بعيدة عن التحقق والوقوع، وستظل كذلك زمانا طويلا، لان الناس ما زالوا ينظرون اليها بعين الشك والريبة ويعتقدون عدم امكان تحقيقها وتطبيقها على الواقع وفى الخارج عن الذهن كما يقول المناطقة، لأنهم يقيسون على انفسهم ويحكمون بما يجدونه فى صدورهم

من الحرج والمشقة فى تنفيذ هذا المطلب العسير .

وانّا اذا املنا زوال هذا المانع فانما نعلق الامل فى ذلك على تلك القوة المعنوية التى تُسيطر على الانسان وتوحى اليه بما تشاء فلا تنبعث ارادته الا بموافقة ما تُوحى به اليه، وليست هذه القوة الا الدين، والدين الاسلامى بالخصوص.

وهل افجأُك بانه ازال المانع بالفعل وسنّى جميع العقبات التى كانت تعترض المفكرين فى طريقهم الى المدينة الفاضلة ؟ ذلك لانه دين علم وعمل ولم يات الا بما ينطبق على العقل والمصلحة العامة. ويكفيك ان تنظر الى الامة الاسلامية فى ايام الخلفاء الراشدين وتستعلم عما كانت تمرح فيه من السعادة والهناء وتستمتع به من الرغد والرخاء. بل ان جميع البلاد التى امكنها تطبيق الشريعة الاسلامية بالحرف والنص والسير بموجب تعاليم القرءان الشريف سواء فى الشرق والغرب والقديم والحديث، لم تلبث ان حمدت مغبّة فعلها وذاقت طعم السعادة واغتبطت بالحياة فى عالَم الحقيقة اغتباط سكان المدينة الفاضلة بها فى عالَم الخيال !.

ودونك الآن صورة مصغّرة لاحدى تلك المدُن الفاضلة المغفلة التى بناها الاسلام فى القرون الوسطى كما حدثنا عنها الابى فى شرح مسلم فقال : «كان قضاء تونس فى ايام الدولة الموحدية لا يُولّاه الا قُضاة من مراكش، فاتفق مرة ان قدم اليها قاض فجلس مجلس الحكم.

فبقى اياماً لا ياتيه احد، فظن ان الناس لم يرضوا به. ثم قدم اليه يوما خصمان من اهل سوق الجبة فقال احدهما اصلحك الله ان هذا شريكى وقد باع جُبَّة من أعرابى وانا لااستحلُّ مال الاعراب. فعلم القاضى حينئذ ان عدم اتيان الخصوم اليه انما هو لتناصفهم ومراعاتهم جانب الله» قال: «وسقط دينار من احد المارة بطريق العطارين فبقى مُلقى مدة لا يرفعه احد، ثم بعد ذلك لم يُوجد فقال الناس اليوم دخل بلدنا غريب»

افلا يرى القارىء ان هذه مدينة فاضلة مُغفَلة يُعيى بُناة هذا العصر تشييد نُظيرتها واقامتها على مثل الأُسس المتينة التى كانت تقوم عليها تلك فى تواضع جميل وخضوع مثيل ؟

هذه امريكا اليوم قد امتلأت سجونها بالمجرمين ولم يَعُد فى امكان القُضاة بها فصل جميع القضايا المرفوعة اليهم، فمنها ما أرجىء الى ما بعد مرور سنة فاكثر (1)، ولكن ما بالنا نذهب للمقارنة فى غير سبيل وقد قال شاعرنا الاول :

تلك المكارم لاقعبان (2) من لبن ☆ شِيبا (3) بماء فعادا بعدُ ابوالا

---

(1) اخبار الجرائد في سنة 1350.

(2) القعب قدح يحتلب فيه. (3) خلطا.